الأمير عثمان آدم (جانو) ودوره في إرساء دعائم الدولة المهدية في كردفان (1303 -1307هـ / 1886 – 1890م)

د. يسرية موسى أحمد
أستاذ التاريخ الحديث المشارك – قسم التاريخ – كلية التربية – جامعة كردفان

مستخلص:

تناولت هذه الورقة شخصية الأمير عثمان آدم الملقب بجانو وهو أحد أمراء المهدية الذين تولوا إدارة عمالة الغرب (كردفان ودارفور)، ويرجع له الفضل في تثبيت سلطة الدولة المهدية فيها وإخضاع كل القبائل المعارضة لها . هدفت الورقة للتعريف بشخصية عثمان آدم وصفاته ودوره في إدارة عمالة كردفان في وقت عصيب وتنفيذ سياسة الخليفة عبد الله الرامية لتهجير القبائل الى أم درمان ، والمشاكل التي واجهها عثمان آدم أثناء إدارته ، خاصة مشاكل القبائل المعارضة للهجرة حتى إنتقاله الى الفاشر والإقامة فيها عندما تم دمج عمالتي كردفان ودارفور لتصبح عمالة الغرب وعاصمتها الفاشر. إتبعت الورقة المنهج التأريخي التحليلي الوصفي. توصلت الورقة لعدة نتائج أهمها أن عثمان آدم كان من أشد المؤمنين والمخلصين لفكرة المهدية ورغم صغر سنه إلا أنه إتصف بصفات القائد الرشيد والناجح مما جعل له مكانة خاصة عند المهدي والخليفة من بعده ، كما يرجع إليه الفضل في القضاء على حركات التمرد والعصيان وسط القبائل الرافضة لسياسات الخليفة مما أدى الى إستتباب الأمن وإستقرار الأوضاع في عمالة الغرب . مثّل عثمان آدم ركيزة أساسية من ركائز الدولة المهدية في عمالة الغرب منذ توليه في 1303هـ/ 1886م وحتى وفاته في 1307ه/ 1890م .

كلمات مفتاحية : الدولة المهدية ، السياسة الداخلية ، الإدارة في كردفان ، التهجير.

Prince Osman Adam (Jano) and his Role in Laying the Mahdist State's foundations in Kordofan (1303 - 1307 AH \ 1886 - 1890 AD)

Dr.Yosreya Musa Ahmed

Abstract:

This paper deals with the personality of Prince Osman Adam, nicknamed Jano, one of the Mahdist princes who took over the administration of the Western Province (Kordofan and Darfur). He is credited with establishing the authority of the Mahdist state there and subjugating all the tribes opposed to it. The paper aims to introduce the personality of Osman Adam, his characteristics and his role in the administration of the Kordofan Province at a difficult time and implementing the of the Caliph Abdullah' policy aimed at displacing the tribes to Omdurman, and the problems that Osman Adam faced during his administration, especially the problems of the tribes opposed to the migration until

he moved to El Fasher and settled there when the Kordofan and Darfur provinces merged to become the Western Province with El Fasher as its capital. The paper followed the historical, analytical, and descriptive method. The paper reached several conclusions, the most important of which is that Osman Adam was one of the most ardent believers and loyalists to the idea of Mahdism. Despite his young age, he was characterized by the qualities of a wise and successful leader, which gave him a special status with the Mahdi and the Caliph thereafter. He is also credited with eliminating the rebellion and disobedience movements among the tribes that rejected the Caliph's policies, which led to the security restoration and stability in the Western Province. Osman Adam represented a fundamental pillar of the Mahdist state in the Western Province from 1886 until his death in 1890.

Keywords : Mahdist State , Domestic policy, Administration in Kordofan Displacemen .

تمهيد :

أغلب الكتابات التى تناولت تاريخ المهدية مع أهميتها والجهد الذي بذل فيها لم تتناول رجال المهدية بصورة مفصلة في دراسة قائمة بذاتها إلا القليل منها رغم مكانة هؤلاء الرجال التاريخية. لذا حاولت هذه الدراسة أن تتناول شخصية الأمير عثمان آدم (جانو) لإثبات دوره في تثبيت أركان الدولة المهدية فى غرب السودان ولكثير من المواقف العسكرية والإدارية والتى تطلبت شجاعة وقوة شخصية لحسمها.

خلقت المهدية رجالاً تشبعوا بالإيمان ، الذى كان سلاحهم الذى استمدوا منه قوتهم واستماتوا فى القتال دفاعاً عنه، وتفجرت طاقتهم خلقاً وابداعاً وابتكاراً لفنون الحرب والقتال والخطط الحربية ، فانتشروا في بقاع السودان من أجل نشر عقيدة المهدية والتى مثلت فكر وأيدلوجية آمنوا بها حتى الثمالة ، من هنا جاء جهادهم صادقاً فانتصروا على أعتى الجيوش الاروبية والقادة الأوروبين .

هذه المرجعية الدينية هى التى افرزت رجالاً ذوى بأس شديد ومقدرة على الإقناع إن لم يكن بالحجة والمنطق ، كان بالقوة والقهر فى بعض الأحيان وعند ضرورة استخدامها مما إنعكس سلباً على دولتهم فتنازعتها الفتن والإنقسامات فى بعض أرجائها وكان التمرد والثورة ضد السلطة الحاكمة فى أجزائها الأخرى .

ذلك الجو المفعم بالدين فى بداية الثورة المهدية ، والذى بدأ يجمع المتناقضات فى تنفيذ السياسات داخل إطار الدولة خاصة فى عهد الخليفة عبدالله يلفت النظر لدراسة أمراء المهدية ودورهم فى إرساء قواعد الدولة المهدية عبر نهجهم السياسي والتخطيط العسكرى وتنفيذ سياسات الخليفة فمن بين هولاء الأمراء كان الأمير عثمان آدم (جانو) .

كان للأمير عثمان آدم (جانو) خصوصية تميزه عن غيره من الأمراء الذين تعاقبوا على إمارة الغرب (كردفان ودارفور) لأنه ارتبط بكل ماهو ظالم وبغيض وهو الرأى السائد لدى أهل دارفور ، لكن بعد تناول

هذه الشخصية بالشرح والتحليل يجعل منه قدوة حسنة وطيبة تساهم فى تربية الأجيال التربية الوطنية وتغرس فى نفوسهم معانى البطولة والقناعة والوفاء والولاء للقيادة الصالحة . إضافة لما له من دور فى ترسيخ المهدية ونشرها في المنطقة رغم ذلك أهملته كتابات المؤرخين خاصة الجوانب المشرقة من شخصيته والتي تعتبر الأساس فى مواقفة البطولية وإخلاصة للمهدية ومساهمته فى حماية الحدود الغربية للدولة . لذا جاءت هذه الورقة لتوضيح دور الأمير عثمان آدم فى إرساء دعائم المهدية فى كردفان وإخضاع المناوئين مع توضيح أهم لأعمال الإدارية التى قام بها والمشاكل التى واجهته مع القبائل المختلفة الرافضة للهجرة والى أنتقاله الى دارفور.

المبحث الأول: نشأة الأمير عثمان آدم وانضمامه للمهدية:

أولاً : مولده ونشأته وصفاته :

هو عثمان بن آدم بن عمر بن محمد (المدفون بمدينة القيروان بتونس الخضراء) بن عبدالله بن السيد يعقوب بن محمد الحربي بن نور الدين بن سراج الدين بن عبد الجليل (مدفون بمدينة إسنا بصعيد مصر) ، ينتمي نسبة الى سيدنا الحسين بن على (رضى) ([1]). ولد عثمان آدم عام 1282ه/1866م ([2])، بقرية طبور التى تقع فى المنطقة مابين قرية طوال وأم دافوق وتعرف الآن باسم المسيج (المسيد) فى ولاية غرب دارفور. تعلم القراءة والكتابة مع حفظ القرآن الكريم فى خلوة السيد محمد تورشين والد الخليفة عبد الله.

من أوصافه فتى مربوع القامة نحيف الجسم ذو وجه نحيل تكسوة القوة والصلابة ، ورباطة الجأش تعلو رأسه عمامة ناصعة البياض ، يرتدى جبة من الدمور ، مرقعة بمختلف الألوان ، يحمل سيفه فى غمد عادى من الجلد وبيده حربة كبيرة ، وعلى ظهره كنانة مملوءة بسهام صغيرة ، فارس تقرأ فى ملامحة وسامة ، ذو سحنة سمراء ، وعلى وجهه أثار الجدرى ، غير أنها لم تشوة ملامح وجهه ، وله عينان سودوان تشعان من حين لآخر ، ذو لحية دائرية صغيرة وشارب خفيف، كان وسيم الطلعة ، بشوش دائم الإيناس والبشر ، جيد التحدث أشعث أغبر فقيل له فى ذلك(... لم لا تكون دهيناً مثل الأمراء الآخرين ؟ فقال أنه منذ ان عينة خليفة المهدى للغرب لم يقرب النساء...)([3]) . بينما تذكر الروايات إنه (... منذ أن بدأت فتنة أبي جميزة لم يقرب النساء...) ويرجح الرأى الأخير لأنه قبل ذلك كان له زوجات لهن أولاد أرجعهن من الفاشر الى الأبيض.

لقبه :

(جانو) ، أطلق عليه هذا اللقب فى كردفان ، إختلفت الآرء فى المعني ولكنها إتفقت جميعها فى عجمتها ، حيث ذكرت الدكتورة فيفيان ياجي (... أن معنى اللقب هو الزعيم الحقيقي...) ([4]). مع وجود إختلافات لا تفضى الى حقيقة . وحتى الخليفة نفسه لم يكن يعلم معنى اللقب ، فكتب الى عثمان آدم مستنكراً ذلك الأمر وأصدر أمره لجميع الأنصار بترك ذلك اللقب ، بل هدد وتوعد من يخالف ذلك الأمر بالويل والثبور حتى يتوب ، فجاء في خطابه (... نعرف الحبيب أن اسمك واسم ابيك كل منهما معلوم من الأسماء الطيبة ، فينبغى أن كل من دعاك فلا يزد عليها ، وقد بغنى أن بعض الناس ينادونك بلقب جانو ، وهو غير اسمك الأصلي، وما وافقنا ذلك ، ونبهنا بترك اللقب المذكور تنبيها عاما لكافة الأصحاب ، وحررنا لك هذا لمعلوميتك بذلك وإفهام من معك بأن يقتصروا من الآن فصاعداً فى مناداتك على إسم عثمان آدم فقط ، وأن كل من يخالف وينادبك باللقب الذى نبهنا بتركه فلا نرضى نحن عليه حتى يتوب توبة نصوحا ...)([5])، ويمثل قوله تعالى (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله)([6]).

ثانياً : مناصرته للمهدية:

بعد واقعة الشلالى فى18محرم 1299ه/9 ديسمبر1881م ، التى إنتصر المهدى فيها ، إنتشر خبر المهدى فى جميع أنحاء السودان ، فتحركت الوفود الى قدير مبايعة له ، كان من بين الوفود وفد دارفور من أرض قبيلة التعايشة يضم عدد من الرجال كان عثمان من بينهم وهو لم يتعد السادسة عشر من عمره . أظهر ذلك الصبى رغم حداثة سنه عند مقابلته للمهدى ومبايعته له ولاءاً وحماساً للمهدية لا يفوقة ولاء ولا حماس ، فقد بهرته انتصارات المهدى ، فانخرط فى سلك المجاهدين وحينما فكر المهدى فى إرسال دعاته الى ارجاء السودان المختلفة جمع أتباعه واستشارهم فيمن يرسله الي دارفور لبث الدعوة ونشرها بين الأهالى فتصدى له عثمان آدم والتزم جازماً بتنفيذ المهمة ، فما كان من المهدى الا أن وضع يده على رأسه وقال:(... صغير مثل القرش وراء جوادك الكديس الفاشر تطويها طى الريش...) [7] .وهذا يدل على أنه فعلاً كان صغيراً فى السن .

بعد فتح الأبيض لم تكن وحدات المهدية المقاتلة قد إنتظمت بعد وقد كانت الوحدة الوحدة الرئيسية هى راية القبيلة ، فقسم الجيش الى ثلاث مجموعات قتالية تعمل فيما بينها بتنسيق وهى ، فرسان الإستطلاع وقوة الإقتحام وقوة النيران المعززة ، عند الإستعداد لمعركة شيكان وقع العبء الأكبر على قوات الإقتحام بقيادة عبد الرحمن النجومى وقد توزعت الى ثلاث رايات كبرى إنقسمت بدورها الى رايات القبائل فجاء تكوين الراية الزرقاء مفصلاً على قبائل كردفان ودارفور وأوكلت إمارة التعاشية فيه الى عثمان آدم وأحمد على ويونس الدكيم وأحمد فضيل([8]).

الملاحظ على هذا الأمر أن عثمان آدم قد وضع على رأس مقاتلي التعايشة وكبار قادة المهدية كيونس الدكيم وهو صاحب خبرة مما يشير الى مقدرة عثمان أدم العسكرية والإدارية كما يدل على شجاعته وإيمانه العميق بالمهدية وتغلبه على متطلبات عمره وهو فى مقبل الشباب لم يتجاوز العشرين عاماً .

ثالثاً : علاقته بالخليفة عبد اللّه :

إتسمت العلاقة بين الأمير عثمان آدم (جانو) والخليفة عبد الله بالود والإحترام وكان مطيعاً له طاعةً عمياء ومنفذاً لكل أوامره ونواهيه فكانت ثقة الخليفة فيه ثقة كاملة تجلي ذلك فى خطابه اليه ، حيث كتب له ذلك قائلاً : (... نعلمك أنك معروف لدينا بصفاء السريرة والصدق التام ، والقلب واثق من جهتك ، أنك ترضى بكل مايصير لك منا سواء كان على نفسك أو أهل بيتك أو أولادك جزاك الله عن ذلك خيراً...)([9]) .

عرف الأمير عثمان آدم باحترام حاشيته من الأمراء والجنود فكان يحفظ مقاماتهم وأوضاعهم ويوقرهم لينال رضاهم فبادله الجميع حباً بحب وثناءاً بثنا واحتراماً باحترام([10]). فعند وصوله الى مدينة الأبيض في 26 جمادي الأول1303ه/ مارس 1886م خرج الأمير حمدان ابو عنجة لإستقبالة عند بوابتها، فما كان من عثمان آدم إلا أن ترجل من فرسه وحيا حمدان الذى طلب منه الخليفة أن يحضر من جبال النوبة لتسليم عثمان زمام الأمر فى مدينة الأبيض ([11]).

المبحث الثاني : عمالة عثمان آدم على كردفان:

عندما تحرك المهدى بكل أنصاره نحو الأبيض فى 14شوال1299هـ /28 أغسطس1882م عين محمود عبد اقادر عاملاً على منطقة قدير وجبال النوبة وكانت مهمته الإشراف على عائلات الأنصار فى قدير وعلى

الأسلحة النارية التى غنمها المهدى من معاركة السابقة ، ثم إتسعت مهمته فأوكت اليه مهمة نشر دعوة المهدية بين سكان تلك المناطق وحفظ الأمن ، ومنع أتباعه من التعدى على الآخرين ([12]). وحينما غادر المهدى الأبيض لحصار الخرطوم ترك إبن أخته محمود عبد القادر أميراً على كردفان فى 7 جمادى الآخر 1301هـ / 14 ابريل1884م، وكانت مسئولياته تشمل إدارة عمالة كردفان وجبال النوبة ، وظلت كذلك حتى جعل المهدى منطقة الجبال عمالة منفصلة وعين عليها حمدان أبو عنجة بعد فتح الخرطوم ، مع تحديد إختصاصات كل منهما على أن يمد محمود حمدان بما يلزمه من قوات ومعدات وأسلحة ، والا يأوى أى فرد يصله من سكان الجبال وعليه رده فوراً الى حمدان . بعد وفاة المهدى فى9 رمضان1302/ 22 يونيو 1885م ([13]). تباطأ محمود عبد القادر فى الحضور الى الخليفة فى أم درمان ولم يغادر الأبيض الا فى شوال 1302ه/ أغسطس1885م بعد أن طلب من حمدان ابي عنجة أن يقوم بادارة كردفان فى أثناء غيابة . وأثناء بقاءه فى ام درمان لتقديم البيعة للخليفة بلغته اخبار تمرد الجهادية وهروبهم الى الجبال فطلب الإذن من الخليفة للعودة الى الأبيض وتعقبهم ومواصلة الجهاد فسمح له الخليفة بذلك، فاتجه محمود لجبال نيما الذي تحصن فية الجهادية وظن ان المسألة عدم ثقة حدثت عند مغادرته الى ام درمان وانه يستطيع استمالة الجهادية ويطمئنهم للمهدية ، الا انهم لم يستجيبوا ودخلوا معه فى معركة طاحة هزم فيا الأنصار وقتل محمود عبد القادر فى 13 ربيع الأول1303ه /20 ديسمبر1885م ، وبموته أرسل الخليفة الأوامر لحمدان ابو عنجة بالتوجه من الجبال الى الأبيض ليستلم زمام الأمر فيها لحين وصول عاملاً جديداً([14]).

عثمان آدم أميراً على كردفان :

قرر الخليفة اختيار عثمان آدم عاملاً على كردفان وزوده بقوات عديدة وفي طريقه للأبيض تخلف بمنطقة جديد لدعم قواته وتركيزها([15]) وفي جمادى الأول 1303ه/ فبراير1886م أمره الخليفة بالتوجه الى كردفان لمباشرة مهام منصبه. وهناك بدأ أعماله تحت رئاسة حمدان أبي عنجة الذى كان مسئولاً عن كردفان عقب موت محمود عبد القادر ، بالإضافة الى أنه أعلى مرتبة ومكانة عن عثمان آدم ، كما أن في ذلك الوضع اعتبارات أدبية لحمدان أبي عنجة. وقد أدرك عثمان آدم هذا الوضع فحسن علاقته مع حمدان وبذل جهده في اطاعته ومؤاذرته (.. وانكم لم تقدموا على قطع أي أمر كان بوجوده إلا بعد اشارتكم له .. وكذا بغيابه أيضاً جاري الاستئذان منه ..)([16]). وهذا يوضح أن حمدان أبي عنجة كان ينتقل في إشرافه على المنطقة بين كردفان وجبال النوبا ، وعلى ضوء ذلك فقد ساعده عثمان آدم في محاولة اخضاع الضباب عندما أرسل اليهم حمدان سرية من الأنصار تمكنت من هزيمتهم وأسر بعضهم([17]) . وقد استمرت العلاقة بين حمدان وعثمان آدم قائمة على هذا الأساس حتى غادر حمدان غرب السودان في 16يونيو1304ه/ 12مارس1887 ومن ثم أصدر الخليفة تعليماته بجعل كردفان ودارفور عمالة واحدة وعين عليها عثمان آدم في 12 ربيع أول 1305ه/28 نوفمبر1887م ، وعزل يوسف ابراهيم وهو أحد امراء الفور لاتهامه بالخيانة وعدم ولائه للمهدية([18]). وبالرغم من أن الخليفة لم يكن متأكداً من موقف يوسف ابراهيم ، اذ أشار لعثمان آدم بجعل منشور عزله سرياً حتى التأكد من حقيقة موقفه ، فاذا وجده صادقاً في ولائه لا يعلنه وإن وجد فيه إعراضاً عن المهدية يعلنه دون تردد ، وفي كلا الحالتين فان الإجراء بتعيين عثمان آدم عاملاً على عمالة الغروب كان قائماً على ثقة الخليفة فيه . وكان الخليفة يشيد بجماعة عثمان آدم ويكثر من عطفه عليهم بغرض رفع

روحهم المعنوية وضمان ولائهم المستمر للمهدية واطاعتهم لقائدهم عثمان آدم . وقد رمى الخليفة من وراء ذلك لاشعار الأنصار بعطفه عليهم وتواضعه معهم . ولتأكيد هذه السياسة قضى على الفوارق الطبقية بين قواته ، وأقام المساواة قدر استطاعته بين المحاربين دون تمييز بالألقاب ، فأصدر في هذا الشأن منشوراً ألغى به الألقاب المحلية المتعارفة كالفكي والفقير والفقراء ، والألقاب الشخصية ، وأمر بعدم التلفظ بها وسط الجنود لأن ذلك قد يسيء لبعضهم ، وجعل الألقاب المتعارفة بينهم هي الأصحاب والأنصار فقط ([19]) . وقد جعل هذا الإجراء مساواة جميع أتباعه في أداء جميع مسئولياتهم وواجباتهم دون أن تعطي تلك الألقاب أي فرد مكانة سامية تميزه عن غيره ، وجعل كفاءة الأداء والبذل في سبيل المهدية هي المحك المميز بين أتباعه . ويبدو أن عثمان آدم كان يتحرج من لقبه المعروف بجانو فأتاح ذلك المنشور الفرصة لاصدار منشور آخر بعدم مناداة عثمان آدم بجانو بل باسمه فقط وهدد بعقوبة من يخالف ذلك الأمر([20]).

المشاكل التى واجهت الأمير عثمان آدم :

وقد واجهت عثمان آدم بعض الأحداث والمشاكل بين الأقسام الإدارية في كردفان ومن أمثلة ذلك :

1. أن سيماوي تمساح شيخ دار حامد رفع شكوى ضد تدخل علي منير عامل الجوامعة في بعض مناطق دار حامد وعين عليها أحد أتباعه ويسمى حامد ولد الميرم مخالفاً بذلك الوضع الإداري للمنطقة لأنها من المقرر أن تكون تابعة لسلطات علي أحمد الهاشمي في الأبيض ، مما أدى الى استياء أهالي دار حامد ومطالبتهم بتصحيح الوضع ، فأصدر الخليفة تعليماته الى علي منير بأن يلتزم حدوده المعينة في دار الجوامعة لأن دار حامد من اختصاص عامل الخليفة في الأبيض ويشرف عليها وكيله ، ثم طلب من سيماوي تمساح أن يتعاون مع علي الهاشمي في ادارة هذه المنطقة([21]).
2. وقد وجه الخليفة أيضاً حسيب أحمد جمال الدين عامل شات جنوب غرب الدويم بألا يتعرض للقرى المجاورة للتيارة وعددها تسعة عشر قرية([22]) ،على أن تكون هذه القرى من اختصاص علي منير وأن ينصرف هو الى عمله داخل الحدود المرسومة له الواقعة بين دار الأحامدة وشبشة([23]) ، وتركت منطقة الجمع ودار الأحامدة الى يونس الدكيم ، ثم اضيفت دار الأحامدة الى عمالة شات وعين عليها حسيب أحمد جمال الدين أحد أتباعه ويدعى عبد الله محمد صالح([24]) .
3. رفض قبيلة الكبابيش للهجرة وعصيانهم .
4. تنفيذ سياسة الخليفة في تهجير قبائل كردفان الى أم درمان ، وقد واجهته صعوبات كثيرة اضطرته للمواجهة المسلحة ضد هذه القبائل .

عثمان آدم وتهجير قبائل كردفان الى أم درمان :

ارتبطت الهجرة في فترة المهدية في أذهان الناس رباطاً دينياً بهجرة الرسول الكريم من مكة الى المدينة مناضلاً في سبيل تحقيق الحق وتطهير المجتمع من براثن الجهالة والضلال وكان المهدي نفسه قد اقتدى بسنة الرسول حين أراد أن يعمق مفهوم النضال في قلوب مناصريه فهاجر بهم الى مكان يكون فيه قوام الدين لغرس مفاهيم الكفاح الثوري ، والارتباط الوثيق بعقيدتهم الدينية، ومدلولات ذلك جهاد في سبيل الله ضد

أعداء البلاد وأعداء الدين . وعندما اكتمل للمهدي إعداد الفئة القادرة على تحمل مسئوليات فكرته واتجاهه خرج بهم غازياً في شأن الله حيثما كان الضلال والفساد ، وسيادة تعاليم الإسلام الصحيح دون تحديد حيز مكاني لتطبيق ما أراده . ولذلك كانت دعوة المهدي الجهاد في سبيل الله حقيقة تجسدت فيها ارادته الثورية والدينية ، وبهذا المفهوم تمكن من جذب جماهير الغرب المحاربة في صفوفه لتهاجر معه لتكملة بناء الفكرة، ومؤمنة بأن الولاء للمهدية هو مزيد من البذل والتضحية فهاجرت طائعة راضية لنصرة الثورة ونجاحها . وحاول الخليفة الاقتداء بسنة المهدي في هذا السبيل فكتب الخطابات وأصدر الأوامر المشددة الى عماله وأمرائه وأعوانه وزعماء القبائل يدعوهم الى الهجرة الى أم درمان مستخدماً في ذلك كل وسائل الدعاية والترغيب ، لاقتناعه – بعد ممارسته السلطة – أن تثبيت دعائم حكمه واستمرار سيادته يعتمد عملياً على العنصر المتمثل في قبائل الغرب . ويرجع اصرار الخليفة بعد ذلك على ضرورة تهجير هذه القبائل الى عدة عوامل منها ما يلي:

1. شعر الخليفة أن هناك من ينكرون أحقيته في تولي الخلافة بعد المهدي وعلى رأس هؤلاء الأشراف ، وانه لكي يؤكد أحقيته ويفرض وجوده لا بد له من سند قوي يعتمد عليه ، فكان لا بد أن يستند على قبائل الغرب([25]) لأنها من فصيلته ، وانه يستطيع أن يفرض ارادته عليها مما جعله يختار أغلب قادة الجيوش والأمراء منها ، وفرقته الرئيسية (الراية الزرقاء) تتكون منهم ، وعماله الأساسيون من هذه الفصيلة . وهو بذلك يستطيع أن يضعف من سلطة (أولاد البلد) وابعادهم عن سيطرة الحكم ، وبذلك يفسح المجال الى قبائل البقارة فيقوى نفوذهم .
2. اتخذ الخليفة من مبدأ الجهاد في سبيل الله واستمرار الكفاح الذي بدأه المهدي لبناء الدولة وتطبيق فكرة المهدية ، وسيلة لمخاطبة قبائل كردفان لتقبل هجرة أوطانها وانتقالها بكل ما تملك من أبناء ونساء وممتلكات الى أم درمان مدعياً أن (الكفرة) قد تحركوا نحو البلاد يريدون احتلالها ، وكلف حمدان أبي عنجة([26]) للقيام باستنفارها لتسرع لحماية البلاد وردع المعتدين ، دون أن يركز في استنفار كل قبائل السودان للذود عن بلادها ، مما يجعل أن غرضه لم يكن مواجهة الأعداء بقدر ما هو سبيل لاقناع تلك القبائل بالهجرة ، مركزاً على أن الهجرة أصبحت واجبة ينبغي عليهم قبولها ، ومن ينفذونها سينالون كل الخير والرضاء([27]) ، لأنه بانتشار المهدية في غرب السودان يكون أمر الجهاد هناك قد انتهى ، وحتى لا يختفي الايمان من قلوبهم ولا ينشغلوا بالمظاهر المادية والدنيوية عليهم بالحضور .
3. كذلك اتخذ الخليفة من المناسبات الدينية فرصة لدعوة هذه القبائل الى أم درمان ، فكان يدعوها الى حضور ليلة المولد النبوي معه([28]) وايام الأعياد وزيارة قبر المهدي .لأن تلك المناسبات من شعائر المهدية ، وأن حضورها بالبقعة مكمل لعقيدة الأنصار ، وفي أم درمان ستكون الفرصة سانحة لهم لينهلوا من تعاليم المهدية ومبادئها ، وستمتلئ قلوبهم بحب الجهاد في سبيل المهدية .
4. ويمكن أن يقال أيضاً، أن اصرار الخليفة على هذه الهجرة فيه نوع من الاستفتاء عن مدى التفاف هذه القبائل وزعمائها حوله ومدى ولائها لحكمه والتضحية في سبيل بقاء الدولة

المهدية ، وهو بذلك يستطيع تقويم الامكانيات المادية والبشرية التي تسنده وتشد من أزره ، كما أراد أن يعرف أثر سطوته ونفوذه ونفاذ سياسته وسط تلك القبائل ، ولذلك أعلن لهم قبل ذهاب عثمان آدم الى الأبيض أن من يقبلون الهجرة عن طاعة وايمان بالمهدية سيقوم بحمايتهم والدفاع عنهم ، أما الذين يرفضون الهجرة والانصياع لها فهم خارجون معارضون تعتبر كل ممتلكاتهم غنيمة يمكن تجريدهم منها ومصادرتها لبيت المال([29]) .

5. ثم أرسل الخليفة بعض الدعاة لينتشروا وسط هذه القبائل يحببون اليها الهجرة ويدعونها لتنفيذها . وقد وفر الخليفة لهؤلاء الدعاة التسهيلات الضرورية لتحركهم من وسائل المواصلات والغذاء وغيره ، ودعا أنصاره القاطنين في طريق كردفان – أم درمان بتقديم المساعدات التي يحتاج اليها المهاجرون وطلب من عامله في الأبيض وعمال الأقسام أن يرسلوا من بينهم دعاة أيضا ليدعوا لتنفيذ الهجرة[30] .وقدم عامله في كردفان كل التسهيلات الممكنة للذين قبلوا الهجرة ، من ذلك مثلاً قام أحمد الهاشمي في الأبيض بتسهيل مرور مهاجري التعايشة لأم درمان ، فصرف لهم من بيت مال كردفان 14431 ريالاً و 4091 أردب ذرة وغير ذلك من الثياب والجمال والأبقار والرقيق([31]) ولكن بالرغم من سياسة الترغيب والتأليف التي كان ينتهجها الخليفة ويبذل المحاولات لنجاحها إلا أنه لم يلبِّ دعوته بالهجرة إلا قلة من القبائل ، ورفضت الغالبية العظمى إطاعة أوامر الخليفة ، بل ان بعضها تمرد عليه وقاوم حكمه بضراوة ، وقد انعكس أثر اهتمام الخليفة بقبائل الغرب وجهوده الدائبة في تهجيرهم الى الشمال واغفاله القبائل الأخرى ، في موقف هذه القبائل من سلطته ، فقد أفقدته تلك السياسة أي سند يرجى من القبائل النيلية فضلاً عن أن أغلب الذين هاجروا اليه من كردفان ، تنكروا وفروا راجعين الى أوطانهم .

وقد إرتبط رفض قبائل كردفان لدعوة الخليفة بالهجرة الى أم درمان **ومقاومته لعدة أسباب نذكر** منها الآتي :

1. لم يكن من السهل على هذه القبائل أن تترك أوطانها وأسلوب حياتها وأرضها التي ألفتها بكل ما تحمل من مقومات حياة البداوة وتهاجر الى مناطق يختلف أهلها وطبيعتها عنهم ، وأن حب وطنهم والحنين الدافق الى أرضهم يمنعهم من الرحيل عنها الى تلك الجهات الغريبة([32]).
2. كذلك لم تكن هذه القبائل تثق كثيراً في دعوى الخليفة الدينية واتخاذه الجهاد في سبيل الله ذريعة لتقبل هذه المجموعات الهجرة لتدافع عن الدين وتحافظ على التراث ، ويرجع ذلك الى اعتقادها بأن الجهاد ارتبط بشخصية المهدي ، فقد كان له تأثير قوي على أتباعه يعظهم على الزهد وعلى الجهاد فيتحمسون ويندفعون للتضحية([33]) , ولكن ذلك المفهوم لا ينطبق على واقع الخليفة فقد عرفوه رجلاً سياسياً يسعى لتوطيد حكمه وسلطانه([34])، لذا لم تكن دعوته للجهاد مقنعة لهم .
3. عندما كان الخليفة يراجع سياسته في تهجير القبائل وينظر في الأسلوب الذي يمكنه من تحقيقها دون أن يضع نفسه في موضع ضعف أو تهاون ، اتضح له مدى أثر الزعماء المحليين في أوساط

قبائلهم وأن هنالك قبائل غالت في عصيانها للمهدية وخاصة بعد اعلان التهجير ، فعمل على القضاء على مكانة الزعماء المحليين ومحاربة مواقفهم باذكاء المنافسات القديمة والعداوات التقليدية بغرض اضعاف حركتها وشغلها بمشاغلها الداخلية([35])، وتعميق الفرقة بين زعمائها ليتمكن هو من السيطرة .

وما يمكن أن يقال أن هناك أعداداً من قبائل الغرب هاجرت – تحت الالحاح والتوجيه والإرشاد وتحبيب الهجرة – الى أم درمان ، حيث احتاط الخليفة فأعد لها مكاناً خاصاً تقيم فيه وأمدها بالمؤن الغذائية ، ولم تجد كل تلك الاعداد بغيتها من الراحة الكاملة ومن النعيم الذي وعدهم به ، وقد ترتب على هجرة هذه المجموعات آثار اقتصادية , انعكس ضررها على المناطق المختلفة فنتج عنها القحط والمجاعة التي ألمت بالبلاد في عام 1306هـ /1889م . كذلك أثر هذا على سلامة الأمن سواء داخل أم درمان أو أثناء مرورهم من كردفان الى أم درمان , فقد تعرضت هذه المجموعات لممتلكات الأهالي المقيمين في الطريق بالنهب والأذى رغم أوامر الخليفة المشددة لهم بعدم التعرض لممتلكات السكان ، مما أغضب هؤلاء السكان وزعزع ثقتهم في المهدية نفسها [(36)]. وفي أم درمان اصطدموا بواقع الحياة وطبيعتها واختلاف البيئة مما ظهر أثره نفوراً ورغبة شديدة في العودة بل ان بعضها كان يفر الى أوطانه كلما سنحت لها الفرصة . اذن لم يكن تنفيذ سياسة التهجير أمر يسير بالنسبة للخليفة سواء الذين هاجروا أو الذين عصوا أوامر الخليفة بالهجرة ، فقد كلفته تلك السياسة كثيرا من الجهود العسكرية والمالية , ولم يتمكن من تهجير المجموعة التي قبلت الهجرة رغم قلتها الا بعد استخدام القوة والضغط أما المجموعات الأخرى التي رفضت الانصياع فقد جرد خلفها الحملات العسكرية لإخضاعها فدخلت معه في صراع مسلح استمر حقبة من الزمن)[37](.

مقاومة القبائل للهجرة :

عندما دعا الخليفة قبائل كردفان لحماية الوطن ورد غارات المعتدين والجهاد لحماية الدين ودولة المهدية ، أراد أن يؤكد أهمية ذلك الأمر وضرورة سد المنافذ المختلفة على هؤلاء حتى لا يتسربوا الى الداخل ، ولذلك طلب من علي منير عامل الجوامعة الاهتمام بارسال الطلائع الى منطقة صالح فضل الله زعيم الكبابيش باعتباره في نظر الخليفة متواطئاً مع حكام مصر ويخشى أن تكون منطقته مجالاً لتسربهم أو لحصولهم على ما يحتاجون اليه من معلومات وأسرار، كما طلب من علي منير أن يكون في غاية الأهبة والاستعداد لأي نداء للجهاد([38]) . واستطاع علي منير من جانبه أن يرسل أفواجاً من المهاجرين على دفعات بلغوا 1332 من رجال ونساء([39]) .

ثم بدأ الخليفة في إتخاذ سياسة الضغط المباشر ضد الذين رفضوا الانصياع لنداء الهجرة باعتبارهم خارجين على السلطة ، وأعتبر أموالهم وممتلكاتهم غنيمة للمهدية ، وخاصة القبائل التي اتخذت موضوع الهجرة وسيلة لمقاومة المهدية وحكم الخليفة ، أو كانت تعوق هجرة مجموعات أخرى وعلى رأس هذه المجموعات الحمر والمسيرية.

عثمان آدم ومقاومة الكبابيش :

كان إخضاع قبيلة الكبابيش من أهم المهام التى وقعت على عاتق عثمان آدم ، وهو أمر في غاية الأهمية بالنسبة لسياسة الخليفة في كردفان والخاصة بالقضاء على صالح فضل الله سالم زعيم قبيلة الكبابيش

، إذ لم يكن موقف عائلته من المهدية عى الإطلاق بالصداقة الحميمة ، ففى سنة 1883م أعدم أخوه التوم فضل الله سالم بأمر من المهدى فى الابيض . وقد مثل تمرد الكبابيش خطراً إستراتيجياً على الدولة المهدية وعلى للخليفة ، لان هجرتهم االسنوية بين شمال كردفان ودنقلا جعلت منهم سادة الطرق الواقعة بين مصر وغرب السودان بحيث شكلوا وسيلة لنقل المعلومات الى السلطات المصرية الإنجليزية ([40]). وقد إرتبط موقف الكبابيش بأسباب تأريخية وجغرافية وأخرى سياسية وإقتصادية يمكن تلخيصه فى الآتى([41]) :

1. يعيش الكبابيش بحكم وضعهم الجغرافى فى منطقة صحراوية ساعدتهم على التنقل ، وتعتبر قبيلتهم من أكبر قبائل السودان عدداً إذ يبلغ تعدادهم قبيل المهدية بحوالى ألف نسمة .
2. هذا الوضع جعلهم يتحكمون فى مصادر إقتصادية تجارية هامة ، فهم حلقة الوصل التجارية بين دنقلا وكردفان ، وبين كردفان ومصر وقد جعلهم ذلك الوضع يوطدون صلاتهم بالسلطة فى مصر ، بغرض الحماية العسكرية والسياسية .
3. أحد الأسباب أيضاً قتل المهدى للتوم فضل الله سالم زعيم الكبابيش الذى ثبت تورطه وتخابره مع غردون فى الخرطوم رغم أنه أظهر ولاءه للمهدية .
4. تعارض تعاليم المهدية مع بعض عاداتهم وتقاليدهم التى ألفوها .

ففى أوائل عام 1304ه/سبتمبر1886م عرضت ضمانات الأمن على القبيلة مما أدى الى كسب بعض الكبابيش . وبدأ صالح مفاوضته مع الخليفة لكن الخليفة شك فى أن المقصود هو كسب الوقت الى أن يتم له جمع مؤن وتجميع رجال قبيلته ، وفى الواقع أنه كان فعلاً على إتصال بالقيادة المصرية الإنجليزية التى أرسلت له مدداً من البنادق لم يصل اليه منها الإ القليل ([42]). وقبل هذه الحادثة كان موقف الخليفة قد تحول من مجرد المراقب الى إتخاذ خطوات جادة تجاه صالح ، فوجه ابو عنجة بتحريض البدو ضد صالح ومنعة من من الوصول الى معظم اراضي قبيلته التى بها قادة موالين اليه خارجين على المهدية . وبعد شهرين أرسل المبعوثين بنداء أخير لصالح حتى يتوجه الى أم درمان ، وعندما فشل هذا العرض أمر عبد الله بقية القبائل بمقاطعة الكبابيش وعدم بيعهم القوت اللازم لهم وهدد من يخالف بالعقاب ، ثم هاجمهم عثمان آدم باعداد خطة تقضي بالهجوم على ديارهم من الجنوب والشرق والشمال على أن يتعاون حمدان ابوعنجة والنجومي فى تنفيذ ذلك فى ربيع الثاني1304ه/ يناير 1887م وإستمرت الإستعدادات حتى رجب /ابريل من نفس العام ، حيث كسب صالح أنصاراً من مختلف القبائل التى إتفقت فى موقفها وأقسمت على القتال ضد المهدية ، وكان أبوعنجة على وشك الرجوع مع جيشة الى أم درمان وذلك بعد إنتهائه من حملته فى جبال النوبة . فقام عثمان آدم بتولى العمليات ضد صالح ، مستخدماً بعض قواته الخاصة من جنود المهدية تحت قيادة ضابطه سليمان أحمد أكرت ورجال قبيلة دار حامد ، الأعداء القدمى للكبابيش بقيادة شيخهم سيماوى تمساح ، وبدأت المطاردة وبرغم أن صالح قد قاوم بشجاعة فانه حوصر فى النهاية وقتل فى شعبان 1304ه/مايو1887م([43]).

ثم عمل على تنفيذ سياسة الخليفة في تهجير قبائل كردفان الى أم درمان ، وقد واجهته صعوبات كثيرة اضطرته للمواجهة المسلحة ضد هذه القبائل .

عثمان آدم ومقاومة الحمر والمسيرية:

وبدأ عثمان آدم تنفيذ أوامر الخليفة في الضغط على القبائل بالهجرة ضد الحمر والمسيرية ، فأرسل فرقة يقودها الغزالي – كانت قد حضرت اليه من كاجة ، وذلك في ذي القعدة 1304ه/أغسطس1887م ، وتمكنت هذه الفرقة من هزيمة بعض الحمر والمسيرية وأسرت جماعة منهم ومات في هذا القتال الغزالي فضل الله وثمانية عشر من أتباعه .

ثم أرسل عثمان آدم البشاري ريدة والختيم موسى على رأس قوة أخرى لملاحقة فلول المسيرية بوادي دفيقة فى ديار المسيرية فى ولاية غرب كردفان ، والحمر الذين تجمعوا بوادي البابنوس بالقرب من مدينة بابنوسة الحالية وهم في حالة استعداد للحرب بالمنطقتين . وهناك انتصرت عليهم جيوش المهدية وقتلت زعماء المسيرية في المعركة وهم رضوان أبودية وجمعة أبورزقة وعوجان ، وتقهقرت بقيتهم الى شكا وطلب عثمان آدم من جيش الأنصار أن يتقدم الى الأضية مع الدعاية السلمية الكافية الى الهدوء والتسليم وقبول الهجرة[44] . وكان الخليفة قد كلف بعض من زعماء الحمر والمسيرية بدعوة اهلهما الى الهجرة وترغيبهم في قبولها ، فأبلغا عثمان آدم بأنهما حضرا الى مكان المعركة ووجدا أن أهاليهما تشتتوا ، فدعوهم حيث تجمع بعضهم ، وقبلوا تسليم الغنائم التي أخذوها من الأنصار والتزموا بتسليم الذين تسببوا في العصيان وقادوا المعركة سواء من الحمر أو المسيرية وبعد التحقيق اتضح أنهم خمسة وهم رحمة الدليديم ومنور ولد هبيلة وحمدان غال ومهنا حمدون وعوام اسكوج، وأبدوا رغبتهم في الهجرة الى أم درمان وطلبوا المساعدات اللازمة.

بيد أن عثمان آدم أرسل الى الأضية لكي يتأكد من صدق هؤلاء([45])، وذلك لعدم ثقته في أقوال هذه المجموعات وأنه أراد مطاوعتهم حسب رغبتهم ، وبالرغم من ذلك فقد تجمع له قليل منهم في الأضية وقبلوا الهجرة([46]) .كما أشارت الحوادث الى أنهم توزعوا في جهات كثيرة وأثاروا القلق لعامل الخليفة ، فهو بذلك لا يستطيع أن يجرد خلفهم قوة واحدة فكلما طارد مجموعة منهم ظهرت مجموعة ثانية في مكان آخر ولما خرج عثمان آدم من الأبيض في طريقه الى دارفور لأداء مهمة رسمية([47]) بلغه - وهو بأبي حراز وهي الى الغرب من الأبيض من البشاري ريدة (... أن عمال المسيرية والحمر الذين ذهبوا لاحضار ذويهم قد تنكروا لأوامر الهجرة وبادروا بالعصيان...) ، فكلفه عثمان آدم بتعقبهم وقتالهم ، فلحقهم البشاري ريدة في 29 محرم 1305ه /17 اكتوبر1887م ، ولكنهم تمكنوا من الفرار الى المجلد وفي أول صفر1305ه /19 اكتوبر1887م ، التقى بأعداد من اولاد شيبة بقيادة منور ولد هبيلة وهو من الحمر المتهمين بقيادة معركة البابنوس ، ودار قتال بينهم حصل فيه الأنصار على أسلاب قتيلهم الغزالي فضل الله ، وفي2 صفر1305ه/20 اكتوبر1887م ، تقدمت فرقة المهدية فلحقت برحمة الدليديم وهو أيضاً من قادة تلك المعركة ، ولكنه لم ينتظر بل تقهقر فتعقبه الأنصار حتى أوصلوه الى جهة تخنّي وهي قريبة من شكا . ثم عاد جيش الأنصار بناء على تعليمات عثمان آدم ومعهم بعض الأسرى والغنائم([48]). وقرب الأضية بلغ عثمان آدم أن مجموعة من المسيرية تقيم بجهة العمد والكرناك حضر اليه قائدها ويدعى آدم رابح وأخطره برغبتهم في الأمان والاستسلام واستعدادهم للهجرة . ولكن عثمان آدم أحس بأن هذه الرغبة لم تأت الا عن طريق مواجهتهم ، فأوفد اليهم مندوبين لإحضارهم في منطقة التبون ليتأكد من مدى صدقهم ثم يرسلهم الى الأبيض ومن هناك يواصلون الهجرة الى أم درمان ، أو ينزل عليهم عقاباً رادعاً إن وجدهم مخادعين([49]) . وقد استطاع عثمان آدم ان يحقق تهجير

بعض المجموعات رغم هذه العوائق ، فقد تمكن من ارسال مجموعات من الحمر والمسيرية الى الخليفة في أم درمان بغرض تهذيبهم وارشادهم الى المهدية([50]) .وتشير هذه الأعداد التي أوفدها عثمان آدم الى أم درمان ، أن غالبيتها من النساء بينما عنصر الرجال الذي يطلبه الخليفة بشدة لاستخدامهم كمحاربين قليل جداً . وهذا يرجع الى المعارضة التي تلقاها سياسة التهجير من هذه القبائل ، وهؤلاء في هذه الحالة اما هاربين من الهجرة أو يواجهون الموت في المعارك التي خاضوها مع المهدية . وكيفما كان الأمر فان إذعان بعض مجموعات الحمر والمسيرية جاء عن رغبة وضغط ، وذلك أنه حتى بعد هجرتيهما واجه منهما الخليفة كثيراً من المضايقات والمشاكل([51]) مما جعل الخليفة يبذل مجهوداً في تعقب الذين فروا عائدين لأوطانهم ، ففي 24 رمضان1305ه /4 يونيو1888م أمر عثمان آدم (...بضرورة ملاحقة الحمر الذين نكثوا عائدين لديارهم واجبارهم على الرجوع الى أم درمان دون أن يقبل منهم أي عذر أو حجة...) ([52]) .

عمل الخليفة على استعمال سياسة اللين والترغيب بجانب وسائل العنف والقوة لاستمالة الذين يئوبون بسهولة أو لأن إستخدام القوة يرهقه كثيراً ، فطلب من عمال الأقسام الادارية في كردفان وكبار الأنصار بين القبائل بأن يقوموا بحملة دعائية واسعة بين أهلهم وذويهم لهدايتهم للهجرة وفي هذا الصدد وجه عثمان آدم خير الله عجال وجودة أحمد وأبكر علوان الى المسيرية لإرشادهم وتوجيههم([53])، وقد أفادت هذه المحاولة بعض الشيء في كسب قليل من المسيرية الخارجين ، بدليل اعلان بعضهم انضمامهم الى ابراهيم شريف وكيل عثمان آدم حينذاك بالأبيض .

ثم أراد عثمان آدم أن يدعم هذه المحاولة بوسيلة أخرى فطلب من وكيله بضم المسيرية الى مركز الأبيض لسهولة الإشراف عليهم ومراقبتهم . ولكن وكيله هناك رأى أن ضم المسيرية الى مركز الأبيض قد يسبب اضطرابات في الأمن ، لأنهم دائماً يجنحون الى الفوضى ويحاولون التحلل من أي مراقبة ، فضلاًعن أن بعضهم قد زحف من أبي حراز الى السنوط مما يصعب ربطهم بالأبيض([54])، كما أن آخرين قد التجأوا الى الجبال للحماية بها وتحريض ساكنيها ، مما جعل سلطات المهدية تلاحقهم ، حيث اتضح أن فرقاً من المسيرية وكنانة والحوازمة قد التجأوا الى جبل أبي جنوق ووثقوا علاقتهم بالمك زايد والمك أونسة من مكوك المنطقة وغيرها من النوبا . وعندما لحق بهم الأنصار عرضوا عليهم النزول من الجبل والتسليم ، ولكن هؤلاء العربان تمكنوا من اقناع النوبا بأن هؤلاء الأنصار يمثلون طليعة جيش المهدية وغرضهم من ذلك الحصول على معلومات دقيقة عن مدى مقدرتهم وقوتهم ، وحذروهم من النزول عن جبلهم([55]) . ومن جانب آخر فإن مجموعة من المسيرية قد قبلت الحضور للأبيض والإقامة بقربه حسب سياسة عثمان آدم ، وهذا يدل على أن وكيل عامل الخليفة في الأبيض قد سعى لتنفيذ سياسة عثمان آدم لترغيب المسيرية في الإقامة بالأبيض. وفي 18رمضان 1306ه/18مايو1889م حضر فوج آخر منهم الى الأبيض ، ولكن زعماءهم أبكر علوان وخير الله عجال وجودة أحمد اشترطوا أن ترد اليهم ممتلكاتهم ورقيقهم وأموالهم التي سبق أن سلبتها منهم جيوش الأنصار . وعندما لم يوف لهم بهذا الشرط رفعوا أمرهم الى الخليفة طالبين تدخله ، وأوضحوا له أن المسيرية مستجدين في المهدية ويحتاجون للترغيب والتأليف ، ولذلك فإنهم قد يعتقدون أن تهجيرهم من ممتلكاتهم وأموالهم عقاباً لهم في حين أنهم قبلوا المهدية ورضخوا لسياسة الهجرة([56]) . وقد لازم هذا أيضاً أن عثمان آدم استمر في سياسة اللين وبذل العطاء للمسيرية والحمر واعفاهم عما ارتكبوه من مساوئ

واختار عيسى ود الزين ، وهو في رأيه ذو مقدرة عقلية وحنكة سياسية ليعمل على كسب جانبهم وجذبهم الى المهدية . وتأكيداً لهذه السياسة فإن عثمان آدم عندما مر بدارهم في المجلد قدم لهم الهبات من أبقار وأموال ، وشعر بارتياحهم لقبولهم هذا العطاء. وكان عيسى ود الزين قد رافق عثمان آدم في رحلته لدارفور حتى جبل مرة ، ومن هناك عاد ليتولى مسئولياته الجديدة في منطقة الأضية عام 1307ه/ 1890م ([57]) وكان عليه أن يقوم بحصر أعداد هؤلاء العربان في كشوفات بغرض التحضير لجمعهم وتهجيرهم ، وكان عثمان آدم يرى أن المسيرية أكثر صعوبة من الحمر لأنهم كثيري التداخل مع سكان الجبال وأن رؤساءهم المقيمين في الأبيض لا يبذلون جهداً كبيراً في توجيههم ، ولذا نصح أمبدي عز الدين وكيله بكردفان في هذا الوقت (...أن يقوم ببذل أقصى المجهودات في تهجير المسيرية...) ويعتبر عام 1306ه/ 1888م ([58]) ، الفترة التي شهدت نجاحاً واضحاً في هجرة مجموعات كبيرة لأم درمان . في حين ظلت الغالبية العظمى من هذه القبائل ترفض الهجرة وتقاومها . ولذلك رأى عثمان آدم مرة اخرى ان أسلوب اللين والعطف لا يكفي لكسب العربان لأن موقفهم لا زال مضطرباً وغير مستقر وربما يرجع ذلك الى أن عثمان آدم في رحلته لدارفور صحب معه أكفأ القادة وأقدر القوات . ولم يكن وكلاؤه في الأبيض من المقدرة والحنكة بحيث يسيطرون عليهم كذلك كثرة تغيير الوكلاء أدى الى زيادة التدهور ، فسنحت الفرصة للمارقين من تلك القبائل ليباشروا مقاومتهم لدرجة جعلتهم يضيقون الخناق على الأبيض نفسها ويتسببون في قطع الطرق المؤدية اليها وخاصة بين الأبيض والنهود ، وكان اكثر المتسببين في ذلك من الضُباب والحوازمة والمسيرية([59]) . وازاء هذا الموقف طلب عثمان آدم من شرف الدين هاشم (... أن يتوجه الى الأضية بقواته ليتولى إدارتها والجهات المجاورة لها ، على أن يكون عيسى ود الزين وهو عاملها السابق مساعداً له...) ، وسبب ذلك ان المسيرية كثيراً ما يترددون على الأضية ويغشون سوقها . وان تتعاون قوات شرف الدين هاشم وقوات عيسى ود الزين ضد المسيرية([60]) لازالة خطورتهم وانهاء عصيانهم. ولكن حدث في شوال 1307ه/مايو 1889م ان طلبت مجموعة من المسيرية من عثمان آدم قبول توبتهم والعفو عنهم ، والسماح لهم بترك الجبال والفلوات ويأذن لهم بالإقامة في السنوط ليعملوا بالزراعة ويستقروا ، ويلتمسوا منه أن يرسل لهم من يساعدهم في ذلك.

فقرر عثمان آدم أن يوفد اليهم اثنين من التعايشة لمراقبتهم وارشادهم , وحتى لا يثيرهم من ذلك الاجراء ، أخطر شرف الدين هاشم في الأضية وعيسى ود الزين الذي نقله وكيلاً عنه في الأبيض (... ألا يباشرا أي مسئوليات نحوهم وان يتركوهم دون رقابة مباشرة أو تدخل من جانبهما حتى حضوره واشرافه بنفسه عليهم...)([61]) ، والواقع فانهم ما زالوا يتهربون من مسألة الهجرة لأنهم حينما طلبوا العفو عنهم اقترحوا أن يبقوا بمنطقتهم فى السنوط ويستقروا ، وليس في هذا أي رغبة في الهجرة.

عثمان آدم والحوازمة :

طلب الخليفة من عثمان آدم تنفيذ تلك السياسة مع بذل قصارى جهده في ترغيب السكان فى الهجرة فأدت تلك السياسة([62])، الى أن كثيراً من السكان لجأ الى الجبال أو انضم الى المناوئين للمهدية ، كما حدث عندما احتضن ناصر ولد نوح بعض المجموعات من البقارة وكنانة الذين تقهقروا من الغرب الى دار عقيل ، ولكن الخليفة طلب (... مطاردتهم وتجريدهم من السلاح والممتلكلت ، ومنعهم من الالتجاء[63] الى الجبال...) وكان الخليفة يهتم بهذه المطاردة لرغبته في الحصول على عنصر الرجال لحاجته لأكبر عدد ممكن

من المحاربين مع السماح لهم باصطحاب أولادهم وعوائلهم وجميع مستلزماتهم([64]) .كذلك أصدر عثمان آدم منشوراً الى الحوازمة (...يعلن اهتمامه بهم وعطفه عليهم ورغبته في ازالة مشاكلهم ، ويطلب منهم التعاون مع عيسى ود الزين وكيله بكردفان ، ويحذرهم من التمادي في العصيان ، فهو قادر عليهم مهما كانت قوتهم وخيولهم ، لأن قوات المهدية وجيوشها القادمة من دارفور كفيلة بسحقهم والقضاء عليهم...) وقد وجه مثل هذا المنشور الى كل قبائل كردفان التي ما زالت معارضة([65]) . وفي مجال مطاردته لقبائل كردفان والمجموعات الخارجة على المهدية كان قد وجه عثمان آدم قوة من أتباعه المقيمين بأم درمان على رأسها سليمان أحمد أكرت وآخرين لحصار آدم الاحيمر الذي تحصن بجهة المقداب (... صعيد أبو بسمة قريباً من الزيادية...) وهناك هاجمته قوات الأنصار ، حيث دارت معركة قتل فيها 150 من رجال المنطقة ولم ينج منها الا الذين خرجوا للصيد أو لارتياد المياه ، وتشتت كثير من النساء والأطفال أثناء القتال ولم يحضر آدم الاحيمر نفسه هذه المعركة فنجا من الموت. وأقام الأنصار بعد ذلك ثلاثة أيام استطاعوا فيها أسر زوجة آدم الاحيمر وكميات من الإبل والخيول والرقيق وبعضاً من الذهب والفضة والخرز ثم عادوا الى قواعدهم بأم بادر سالمين([66]) . وقد حزت تلك المعركة في نفس آدم الاحيمر مما اضطره الى مقابلة الخليفة في أم درمان وأنكر أمامه أي علاقة له بصالح فضل الله أو عصيانه المهدية ، بل أكد أمامه أنه كان يعمل في تحصيل الزكاة وأنه أذعن لأوامر الخليفة بالهجرة ، وكان في طريقه لأم درمان حين انقض عليه الأنصار ويرجو من الخليفة انصافه ورد ممتلكاته . ولكن الموقف كان يحتم على الخليفة التأكد من ذلك وخاصة أن هناك عدد من الزعماء الخارجين على المهدية كانوا يدعون موالاة الخليفة وجمع الزكاة له ، حتى أن صالح فضل الله وهو من أكبر أعداء الخليفة ادعى في لحظة من اللحظات تلك الدعوى ومن ثم استفسر الخليفة عثمان آدم عن موقف آدم الاحيمر لتتضح الحقيقة([67]) . والواقع أن أوامر الخليفة بالهجرة قد صدرت الى كل قبائل كردفان وبذل في سبيل تحقيقها كل ما يمكن بذله من مجهودات مالية وعسكرية ، واتبع الأساليب السلمية وأساليب العنف والتهديد . ولكن سياسته اصطدمت بواقع هذه القبائل التي رفضت الهجرة وقاومت كل أساليبه ومن ثم دخل معها في حرب ضارية شملت أغلب قبائل الغرب مثل الكبابيش وقبائل البقارة .

ولكن من خلال تنفيذ تلك السياسة تبرز لنا حقيقتين:

الأولى : أن الخليفة ركز على تهجير قبائل البقارة أساساً ، وهذا يدل على رغبته في محاولة الاستفادة منهم لدعم مركزه وتوطيد حكمه لأنهم أهله وعشيرته ، ولكنهم عندما عارضوه لم يستطع قبول ذلك فتمادى في مقاومتهم وحربهم لاحضارهم الى أم درمان لمراقبتهم وتجنب شرهم مثلما حدث للحمر والمسيرية والحوازمة وغيرهم.

الثانية : هي أن سياسة التهجير فشلت لأن الغالبية لم تلبِّ نداء الخليفة الذي وجهه لها ولم تذعن لجيوشه . فلم يستطع أن يفرض عليها مبدأ التهجير سواء عن طريق التوجيه والارشاد أو عن طريق العنف والسلاح ومن هاجر من هذه القبائل الى أم درمان هاجر عن طريق القوة والارهاب وقليل جداً منهم هاجر عن رغبة وطواعية .

الخاتمة:

وفى نهاية هذا البحث نورد النتائج والتوصيات التى توصلت اليها الورقة وهى :

النتائج :

1. أحدثت الثورة المهدية التى قامت بالسودان فى نهاية القرن التاسع عشر ، أحدثت هزه عميقة فى كيان المجتمع السودانى الذى عايش مفاسد الحكم التركي المصرى، فافرزت رجالاً أفذاذاً دافعوا عنها وعن مبادئها ، لترسخ قواعد وقيم الإسلام فى السودان .فتحمل بعض رجالها عبء نشر مبادئها فى مختلف أنحاء السودان منهم الأمير عثمان آدم الذى لعبت تركيبته الشخصيته دوراً مميزاً فى مجاهداته وممارساته لدعم قوة المهدية وبسط نفوذها فى غرب السودان.
2. نال الأمير عثمان آدم ثقة المهدى وهو مازال يافعاً فعينه أميراً على إحدى رايات التعايشة الأربعة بعد فتح الأبيض الى جانب كبار القادة من رجال المهدية مثل أحمد على ويونس الدكيم واحمد فضيل ، بالرغم من أن يونس الدكيم كان يكبره بتسعة وأربعين عاماً ، وكان الأمير فى السادسة عشر من عمره .
3. إستطاع عثمان آدم السيطرة على عمالة كردفان وإدرتها بحكمة وإقتدار والقضاء على العناصر والقبائل المناوئة لسلطة الخليفة فيها وأهم قضية إشتغل بها هى قضية تنفيذ سياسة الهجرة التى فرضها الخليفة عبد الله على أهالى كردفان والتى عارضتها بعض القبائل كالكبابيش والحمر والمسيرية . ولما رأى فيه الخليفة الكفاءة عينه أميراً على دارفور لتثبيت أركان لمهدية فيها .
4. كان الأمير عثمان آدم متحفذاً لتنفيذ المهام التى من أوكلت اليه مدفوعاً بقوة إعتقاده فى المهدية من جانب وبتوجيهات وأوامر االخليفة من جانب أخر ، ليواجه سنيناً من العنت والمشقة لترسيخ مبادئ وقواعد المهدية فى كردفان وفى ودارفور وهو إقليم بعيد عن مركز السلطة لم يتأثر بالمؤثرات الخارجية لعدم إنفتاحه على العالم كبقية أجزاء السودان الأخرى .

التوصيات :

1. ضرورة أعادة قراءة ومن ثم كتابة تاريخ السودان بأقلام سودانية ووجهة نظر محايدة بعيداً عن التطرف والتحزب والقبلية .
2. إهتمام المراكز البحثية بالدراسات التاريخية والخاصة بتسليط الضؤ على فترة المهدية والخاصة بشخصيات ورجال صنعو المهدية .
3. التركيز على الحياة الإجتماعية فى السودان إبان قيام الثورة المهدية لفهم طبيعة المجتمع السودانى وفهم مواقفهم المختلفة من الثورة المهدية .

الهوامش:

(1) إخلاص على حمد على : الأمير عثمان (جانو) ودورة فى المهدية ، دار عزة الخرطوم 2005م ، ص 61.

(2) Hill, Richard ; A Biographical Dictionary for the Anglo Egyption Sudan ,Clarendon press, Oxford , 1951, p367.

(3) عبد الله محمد أحمد حسن : جهاد فى سبيل الله ، المطبعة الحكومية الخرطوم 1965م ، ص 173.

(4) أمينة فيفيان ياجي : رجال حول المهدى ، ترجمة مكى بشير مصطفى ، الطبعة الأولى ، شركة بيت الخرطوم للطباعة والنشر ، الخرطوم 2001م ، ص 59.

(5) مهدية : من الخليفة الى عثمان آدم 1/11/1 /المجلد الأول ، 14صفر 1304هـ / 13نوفمبر 1886م ، ص 57.

(6) سورة الأحزاب الآية 5.

(7) إخلاص على حمد : المرجع السابق ، ص 65.

(8) عصمت زلفو : شيكان ، تحليل عسكرى لحملة الجنرال هكس ، كررى للطباعة والتويع المحدودة ، الخرطوم 1984م ، ص53.51

(9) إخلاص على حمد : المرجع السابق ، ص 65.

(10) نفس المرجع ، ص 71 .

(11) فيفيان ياجي : المرجع السابق ، ص52.

(12) عوض عبد الهادى عطا : تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ، المجلس القومى للآداب والفنون ، الطبعة الأولى 1973م ، ص 45.44.

(13) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، دار الجيل بيروت 1967م ، ص 935.

(14) إخلاص على حمد : المرجع السابق ، ص 98.

(15) مهدية 1 / 11 / 1 ص 3 جماد اول 1303 (24 فبراير 1886)

(16) مهدية 3 / 4 / 10 / 4 ص 106 ، 4 ربيع آخر 1304 (31 ديسمبر 1886) من الخليفة الى عثمان آدم .

(17) مهدية / 1 / 11 / 1 ص 6 8 شعبان 1303 (1 يونيو 1886) من الخليفة الى عثمان آدم .

(18) مهدية 1 / 11 / 3 ص195 ، 12 ربيع اول 1305 ، (28 نوفمبر 1887) من الخليفة الى عثمان آدم.

(19) مهدية 1 / 11 / 2 ص154 ، 26 ذي الحجة 1304 ، (7 يونيو 1887) من الخليفة الى عثمان آدم.

(20) مهدية 1 / 11 / 1 ص 46 ، 14 محرم 1304 ، (13 اكتوبر 1886) من الخليفة الى عثمان آدم .

(21) مهدية 3 / 9 / 3 رقم 816 ص 275 ، 10 جمادى اول 1303 ، (4فبراير 1886) من الخليفة الى علي منير .

(22) مهدية 3 / 9 / 3 رقم 693 ص 234 ، 24 ربيع آخر 1303 (30 يناير 1886) من الخليفة الى حسيب أحمد جمال الدين .

(23) مهدية 3 / 10 / 4 رقم 541 ، 21 رمضان 1304 ، (13 يونيو 1887) ، من الخليفة الى كافة عباد الله المؤمنين الداخلين في هذه الحدود .

(24) مهدية 2 / 14 / 12 ص 207 17 ذي الحجة 1304 ، (7 اغسطس 1887) من حسيب أحمد جمال الدين الى الخليفة .

(25) عوض عبد الهادى عطا : المرجع السابق ، ص 126 .

(26) مهدية 3 / 9 / 3 رقم 626 ، 14 ربيع آخر 1303 ، (20 يناير 1886) من الخليفة الى حمدان أبي عنجة.

(27) مهدية 3 / 1 / 1 ص 15 ، 23 رمضان 1303 ،

(28) مهدية 3 / 10 / 4 ص 88 ، 20 صفر 1304 ، (8 نوفمبر 1886)من الخليفة الى علي منير.

(29) مهدية 3 / 10 / 4 ص 107 ، 4 ربيع آخر 1304 (31 ديسمبر 1886) من الخليفة الى علي منير .

(30) مهدية 1 / 13 / 1 ص 24 ، 4 ربيع أول 1307 ، (29 اكتوبر 1889) من عثمان آدم الى الخليفة .

(31) Holt , Archives of the Mahdia, S.N.R. vol 36, p. 10

(32) موسى المبارك الحسن ، تاريخ دارفور السياسي ، رسالة ماجستير ، جامعة الخرطوم (1965)ص 120.

(33) عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان . (بيروت 1967) ، ص 130 .

(34) موسى المبارك الحسن ، المصدر السابق ، ص 120 .

(35) Holt , The Mahdist State , P. 141 .

(36) عوض عبد الهادى العطا: المرجع السابق ، ص 129.

(37) نفس المرجع ، ص 130.

(38) مهدية 3 / 9 / 3 رقم 607 ص 207 ، 12 ربيع آخر 1303 ، (19 يناير 1886) من الخليفة الى علي منير.

(39) مهدية 2 / 24 / 7 ص 66 ، 8 رجب 1304 ، (20 ديسمبر 1886) من علي منير الى الخليفة .

(40) ب .م هولت :المرجع السابق ، ص 168.

(41) عوض عبد الهادى العطا : المرجع السابق ص 102، 104، 105.

(42) هولت : المرجع السابق ، ص 168

(43) هولت : المرجع السابق، ص 169.

(44) مهدية 1 / 12 / 1 ص 10 ، 22 ذي الحجة 1304 ، (11 سبتمبر 1887) من عثمان آدم الى الخليفة ، راجع أيضاً مهدية 3 / 10 / 4 رقم 688 ص 240 ، 26 ذي الحجة 1304 ، 15 سبتمبر 1887 من الخليفة الى عثمان آدم . ومهدية 1 / 11 / 2 ص 1 / 155 ، 29 ذي الحجة 1304 ، (18 سبتمبر 1887) من الخليفة الى عثمان آدم .

(45) مهدية 1 / 12 / 1 ص 23 ، 19 محرم 1305 ، (7 اكتوبر 1887) من عثمان آدم الى الخليفة.

(46) مهدية 1 / 12 / 1 ص 25 ، 19 محرم 1305 ، (7 اكتوبر 1887) من عثمان آدم الى الخليفة.

(47) خرج عثمان من الأبيض قاصداً دارفور في 22 محرم 1305 الموافق 10 اكتوبر 1887 ، فخلفه سالم عثمان وكيلاً له في كردفان ، وكان الخليفة قد فوضه أن يترك بعض القوات في كردفان لظروف الحرب من المسيرية والحمر . (راجع مهدية 1 / 11 / 2 ص 148 ، تاريخ 9 القعدة 1304 ، (30 يوليو 1887) .

(48) مهدية 1 / 12 / 1 ص 41 ، صفر 1305 ، (اكتوبر 1887) من عثمان آدم الى الخليفة .

(49) مهدية 1 / 11 / 3 ص 3 / 187 ، 14 صفر 1305 ، (1نوفمبر 1887) من الخليفة الى عثمان آدم .

(50) مهدية 1 / 12 / 1 ص 32 ، 16 صفر 1305 ، (6 نوفبر 1887) من عثمان آدم الى الخليفة.

(51) مهدية 1 / 12 / 1 ص 60 ، 2 جماد أول 1305 ، (16 يناير 1887) من عثمان آدم الى الخليفة.

(52) مهدية 1 / 12 / 2 ص 156 ، 9 القعدة 1305 ، (19 يوليو 1887) من عثمان آدم الى الخليفة.

(53) مهدية 2 / 17 / 2 ص 36 ، 8 صفر 1306 ، (14 اكتوبر 1888) .

(54) مهدية 2 / 17 / 6 ص 317 ، 21 جماد آخر 1306 ، (22 فبراير 1889) من ابراهيم الشريف وعلي الهاشمي الى الخليفة.

(55) مهدية 2 / 16 / 12 ص 568 ، 2 الحجة 1305 ، (11 أغسطس 1888) من علي الهاشمي الى الخليفة.

(56) مهدية 2 / 18 / 11 ص 533 ، 4 القعدة 1306 ، (12 يوليو 1889) من أبكر علوان وخير الله عجال وجودة أحمد الى الخليفة.

(57) Reid " op. cit. " S. N. R. Vol IX. P. 79

(58) مهدية 1 / 13 / 1 ص 71 ، 22 ربيع آخر 1307 ، (16 ديسمبر 1889) من عثمان آدم الى الخليفة.

(59) مهدية 1 / 7 / 1 ص 55 ، 23 جماد أول 1307 ، (15 يناير 1890) من عبد الباقي عبد الوكيل الى الخليفة.

(60) مهدية 1 / 13 / 1 ص 118 ، غاية شعبان 1307 ، (20 ابريل 1890) من عثمان آدم الى الخليفة.

(61) مهدية 1 / 13 ص 140 ، 12 شوال 1307 ، (1 يونيو 1890) من عثمان آدم الى الخليفة.

(62) مهدية 1 / 11 ص 57 ، 23 ربيع أول 1304 ، (20 ديسمبر 1886) من الخليفة الى عثمان آدم .

(63) طلب الخليفة من أحمد الصوفي ومركزه جبل قلي بمطاردة هؤلاءوالقبض عليهم . راجع مهدية 3 / 9 / 3 رقم 692 ص 234 ، 24 ربيع آخر 1303 ، (30 يناير 1886) من الخليفة الى أحمد الصوفي .

(64) مهدية 3 / 9 / 3 رقم 894 ص 305 ، 26 جماد أول 1303 ، (1 أبريل 1887) من الخليفة الى كافة بني جرار .

(65) مهدية 1 / 13 / ملف 1 ص 127 ، رمضان 1307 ، (مايو 1890) من عثمان آدم الى كافة الحوازمة.

(66) مهدية 1 / 11/ 2 ص 2 / 130 ، 18 شوال 1304، (10 يوليو 1887) من الخليفة الى عثمان آدم.

(67) مهدية 1 / 11/ 2 ص 132 ، 26 شوال 1304، (18 يوليو 1887) من الخليفة الى عثمان آدم.

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر ، وثائق المهدية:

(1)مهدية 1 / 11 / 1

(2)مهدية 3 / 4 / 10

(3)مهدية 1 / 11 / 3

(4)مهدية 1 / 11 / 2

(5) مهدية 3 / 9 / 3

(6)مهدية 3 / 10 / 4

(7)مهدية 2 / 14 / 12

(8)مهدية 3 / 1 / 1

(9)مهدية 1 / 13 / 1

(10)مهدية 3 / 4 / 10

(11)مهدية 1 / 11 / 3

(12)مهدية 1 / 11 / 2

(13)مهدية 2 / 24 / 7

(14)مهدية 1 / 12 / 1

(15)مهدية 2 / 17 / 2

(16) مهدية 2 / 17 / 6

(17)مهدية 2 / 16 /12

(18)مهدية 2/18/11

(19)مهدية 1 /1/7

(20)مهدية 3/9/3

(21)مهدية 1/11/2

(22) مهدية 1/12/2

ثانياً : المراجع :

(1) أمينة فيفيان ياجي : رجال حول المهدى ، ترجمة مكى بشير مصطفى ، الطبعة الأولى ، شركة بيت الخرطوم للطباعة والنشر ، الخرطوم 2001م

(2) إخلاص على حمد على : الأمير عثمان (جانو) ودورة فى المهدية ، دار عزة الخرطوم 2005م.

(3) ب .م هولت : دولة المهدية فى السودان ، عهد الخليفة عبدالله 1885ــ1898م ، ترجمة هنرى رياض وآخرون ، دار الثقافة بيروت 1973م.

(4) عبد الله محمد أحمد حسن : جهاد فى سبيل الله ، المطبعة الحكومية الخرطوم 1965م .

(5) عصمت زلفو : شيكان ، تحليل عسكرى لحملة الجنرال هكس ، أبو ظبي أبريل 1978م.

(6) عوض عبد الهادى عطا : تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ، المجلس القومى للآداب والفنون ، الطبعة الأولى 1973م.
(7) عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، بيروت 1967م .
(8) موسى المبارك الحسن ، تاريخ دارفور السياسي ، رسالة ماجستير ، جامعة الخرطوم (1965)
(9) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، دار الجيل بيروت 1967م .
(10) Hill, Richard ; A Biographical Dictionary for the Anglo Egyption Sudan , Clarendon press, Oxford , 1951, p 367.